ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا

﴿ فأضلونا السبيلا ﴾

٥

(المرشدون والمربون — أو — المتصوفة والصوفيون)

الاسلام دين علم الناس أن يعتمدوا في سعادتهم الدنيوية والاخروية على أعمالهم النفسية والبدنية ، وفضل أهل العمل والكسب على المنقطعين لعبادة الله المعتمدين في أمر معاشهم على من يمونهم من أهليهم أوغيرهم، وأقام لكل قاصر وليا يتولى شؤونه ويعنى بتربيته حتى يرشد ويقوى على العمل وعند ذلك يدعه وشأنه، وجعل لكل عاجز فيما يتعهده وينفق عليه ويقوم بأمره الذي عليه مدار حياته ، وجعل هذه الولاية والقيام في الاقربين لانهم أولى بالمعروف وأقرب الى العناية الصحيحة بأمر الصغير والعاجز على ترتيب معروف في فن الفقه، فمن لم يكن له أقارب فعلى أهل وطنه من المسلمين الذين جعلهم الاسلام عائلة واحدة وفرض عليهم القيام بأمر بعضهم على ترتيب يراعى فيه الاقرب فالاقرب نسبا وجواراً ووطنا ودينا . بل فاض عدل الاسلام وعمت رحمته فعلم الآخذين به أن يشملوا بعنايتهم هذه كل من تفيأ ظلالهم ودخل في سلطانهم من أي دين كان، فهو يحض على تربية اليتيم واطعام الجائع وكسوة العاري واعتهاد الضعيف وتجهيز الميت من غير المسلمين اذا لم يوجد لهؤلاء أولياء من ذويهم وأقاربهم وجعل ذلك حقا على المسلمين للذميين على تفصيل يعرف من الفقه

ومن وظائف الحكام الزام المسلمين بما ذكر مع مراعاة شروطه اذا هم قصروا فيه

وغرضنا من هذه الكلمات هنا بيان ان تعميم التربية واجب في الاسلام . وكما تجب تربية كل صغير حتى يكبر ويرشد يجب الاخذ على يد كل كبير اذا اجترح السيئات واقترف المنكرات أو أخل بالآداب العامة وعبث بمصالح الناس وذلك بالزامه بترك المنكر فعلا أو ارشاده الى ذلك قولا . ومن أخل بهذا الواجب هبط الى أسفل درج الاسلام وسقط في أضعف الايمان الذي ليس بينه وبين الكفر الا خطوة واحدة (اذ لا معنى لكونه أضعف الايمان الا هذا) وهذا على تقدير انه ساخط على من فعل القبيح منكرا له في قلبه كما ورد في الحديث الشريف . وفرض مع هذا أيضا القيام بالامر بالمعروف والدعوة الى الخير وانذار الناس بعواقب التفريط لعلهم يرجعون

على هذا كان الاسلام في مبدأ ظهوره ! ولو ظل أهله على منهاجه القويم وصراطه المستقيم لما ضل أحد منهم عن سعادته ولما أهمل أمر التربية والارشاد من الكافة، وانفردت به فئة من الناس سارت في الجادة زمنا وانحرفت عنها أزمانا وجعلت عنايتها في التربية الروحية فقط وأفرطت في الزهادة كما أفرط الذين من قبلهم فأهملوا مصالح الدنيا ولم يوفوا البدن حقوقه وذلك مما جاء الاسلام لتعديله... وبالجملة انهم حتى في طور كمالهم لم تكن تربيتهم وارشادهم على الوجه الذي يكفل للامة سعادة الدارين . ولذلك لم يتبع طريقتهم في كل عصر الا بعض الناس وصاروا فرقة مستقلة سميت الصوفية عدها بعض المؤرخين من الفرق المشتقة من الاسلام

المخالفة لسائر الفرق في الاصول كالمعتزلة والشيعة وأهل السنة . وكيف لا وقد عاملهم فقهاء أهل السنة وحكامهم بأشد ما عاملوا به سائر الفرق فحكموا ببدعة بعضهم وكفروا كثيراً من أكابر شيوخهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ثم غلوا بعد ذلك في تعظيمهم والتسليم الاعمى لهم غلوا كبيرا

من هم الصوفية وما هو شأنهم ؟؟ قال الامام القشيري في رسالته ما حاصله : ان المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى الصحابة اذ لا أفضلية فوقها ثم سمي من أدركهم التابعين ثم من أدركهم تابعي التابعين ثم تباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد ثم ظهرت البدع وحصل التداعي من الفرق فكل فريق ادعوا ان فيهم زهدا فانفرد خواص أهل السنة المراعون انفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الاكابر قبل المائتين من الهجرة اه

وقال العارف الشهاب السهروردي في عوارف المعارف بعد ماذكر الصحابة والتابعين ما حاصله : « ثم لما بعد عهد النبوة وتوارى نورها واختلفت أيضا الآراء وكدر شرب العلوم شرب الاهوية وتزعزعت أبنية المتقين واضطربت عزائم الزاهدين وغلبت الجهالات وكثف حجابها ، وكثرت العادات وتملكت أربابها ، وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها ـ تفرد طائفة باعمال صالحة وأحوال سنية واغتنموا العزلة واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة أهل الصفة تاركين الاسباب مبتهلين الى رب الارباب فأثمر لهم صالح الاعمال وسني الاحوال وتهيأ صفاء الفهوم لقبول

العلوم وصار لهم بعد اللسان لسان وبعد العرفان عرفان وبعد الايمان ايمان كما قال حارثة: أصبحت مؤمنا حقا لما كوشف بمرتبة الايمان غير ما عهد فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها تعرب عن أحوال يجدونها فأخذ ذلك الخلف من السلف حتى صار رسما مستمراً وخبرا مستقرا في كل عصر وزمان فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به فالاسم سمتهم والعلم بالله صفتهم والعبادة حليتهم والتقوى شعارهم وحقائق الحقيقة أسرارهم » اه

أقول يعلم من كلام هذين الامامين في التصوف وغيرهما أن ما كانوا عليه لا يمكن ان تكون عليه الامة بتمامها لان العزلة والانفراد وترك العمل للدنيا يفضي الى ضعف الامة واضمحلالها وينتهي ذلك بزوالها. وأنه قد تجددت لهم علوم ومعارف وأحوال لم تكن تعهد عند سلفهم من الصحابة والتابعين وذلك كالكلام على ماوراء الحس والعقل من العوالم الغيبية وهو مايسمونه علم الاسرار قال ابن الفارض رحمه الله تعالى

وثم وراء العقل علم بدق عن مدارك غايات العقول السليمة

ولهم علوم كثيرة جدا تعلم أسماؤها من كتاب الفتوحات المكية وانما جاءهم ذلك من الرياضات والمجاهدات النفسية والعناية بمعرفة ما انطوي عليه الروح الانساني من الخواص والمزايا والقوى الادراكية والتأثيرية ومن ذلك مايسمونه الكشف والامداد والتصرف بالهمة. ولقد سبقهم الى ذلك فلاسفة اليونان والهنود ولكن الصوفية وصلوا منه الى غاية لم ينته اليها غيرهم. وكل هذا من علم أسرار الكون وطبائع الخلق كالعلم بنواميس النور والكهربائية وخواصهما ولكنه لما جاء بصبغة دينية من رجال الدين حدث عنه ما أشرنا اليه من حط الفقهاء والاحكام على أهله

وتكفيرهم وسفك دمائهم كما فعلوا مع الفلاسفة الذين بحثوا في بقية أسرار الخلق وصبغوا علمهم بصبغة الدين وخلطوه بعلم العقائد الذي سموه (علم الكلام) وكان اضطهادهم للصوفية أشد من اضطهادهم للفلاسفة كما يعلمه من قرأ التاريخ وماذلك الا لان علم الصوفية الغريب عن فهم الفقهاء أمس بالدين بل هو ثمرة التمسك بفضائل الدين وآدابه كما يقول عامة أصحابه ولذلك مزجوه بالقرآن والسنة مزجا ولكن جاء بعضه مخالفا لظاهر الشرع

ليس غرضنا من هذه المقالة بيان مواضع الخلاف بين الفقهاء والصوفية ولا بيان الصواب والخطأ في ذلك وانما نقول ان الصوفية انفردوا بركن عظيم من أركان الدين وهو التهذيب علما وتخلقا وتحققا ولم يكن أمرهم في أول العهد الا عمل صالح وتخلق بالاخلاق الفاضلة ، ثم لما دونت العلوم في الملة كتب شيوخ هذه الطائفة في الاخلاق ومحاسبة النفس فجاؤا بما قصرت عنه الفلاسفة الاولون ثم حدث فيهم الخوض في الكلام على ماوراء الحجاب وشرح ماتنتجه المجاهدة من الاذواق والمواجد وعجائب الخيال ومزجوا كلامهم بالفلسفة العقلية والطبيعية والعلمية وسلكوا في فهم القرآن مسلك طوائف الباطنية الذين كانوا أعظم صدمة على الاسلام فذهبوا الى ان للقرآن معاني غير ماتعطيه اللغة وأساليبها واشاراتها وزعم الباطنية انها هي المقصودة بالذات وقد جاء الصوفية من ذلك بالصحيح والفاسد والباطل الذي ينابذ القرآن والدين بالكلية وقد ورد في حسان الاخبار وصحاحها «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» والمراد برأيه هواه الذي يؤيد مذهبه ، نعم ان لبعض الصوفية فهما في القرآن ترقص له العقول وتعجز عنه العلماء الفحول وقد أنكر الامام الغزالي على المتصوفة نحو

تأويل فرعون بالقلب القاسي والاحتجاج على مجاهدته بقوله تعالى (اذهب الى فرعون انه طغى) وان كان الغرض به صحيحاً ولهم من تحريف الكلم عن مواضعه ما هو أسد من هذا كقول بعضهم في قوله تعالى (ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها) الملوك هي الله « تعالى عن ذلك » والقرية القلب والافساد تبديل الصفات المذمومة بالممدوحة وكقول بعضهم في قوله تعالى « من ذا الذي يشفع عنده » من ذل ذي يشفع أي من أذل نفسه ينال مقام الشفاعة عند الله تعالى . وقد قال ابن الصلاح الفقيه الشهير في فتاويه وجدت عن الامام أبي الحسن الواحدي المفسر أنه قال صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير فان كان اعتقد ان ذلك تفسير فقد كفر ثم قال وأنا أقول ان الظن بمن يوثق به منهم اذا قال شيئاً من ذلك انه لم يقله تفسيراً ولا ذهب مذهب الشرح للكلمة فانه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية وانما ذلك منهم تنظير ما ورد به القرآن والنظير يذكر بالنظير ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الايهام والالباس اه

أقول وقد وقع بالفعل الالتباس فضل به كثير من الناس وما كان من غرائب الصوفية صحيح المعنى في ذاته كان خطوة موصلة لاباطيل الباطنية عند غير البصير المحقق والذي يدرك الفرق قليل . والتفسير المطبوع المنسوب لسيدي الشيخ الاكبر هو لبعض الباطنية وفيه من تحريف القرآن مالم يأت بمثله محرفو التوراة ومع ذلك تزين به المكاتب وتحترمه العلماء وقد قال العلامة النسفي في عقائده: النصوص على ظواهرها

والعدول عنها الى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد، قال العلامة التفتازاني وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية

هذا من شر ما ترتب على مذهب التصوف من مضرة الامة وهو مع ما ذكرناه أولا من الافراط في الزهادة وترك الفعل للدنيا وقد نفر أهل العلم والتعليم من النظر في كتبهم لاسيما في هذا الزمان. ومن العجيب ان أهل هذا العصر يقدسون شيوخ الصوفية ولا يعترضون على أحد منهم ولا على شيء من عادات أهل طرائقهم وان كان بدعة وضلالا! بل يقيمون النكير على من أنكر عليهم ولو بالحق ومع ذلك لا يلتفتون لكتبهم ولا يتدارسونها وان كانت لأئمتهم الذين جمعوا بين علمي الظاهر والباطن زعما ان هذه كماليات لا يطالعها إلا من أراد أن يتفرغ لها !. وبذلك اندرس علم تهذيب الاخلاق الذي هو روح الدين وقوامه لانه لا يوجد الا في كتبهم وكتب الفلاسفة وكتبهم هي التي تذكره على الطريقة الدينية . أليس من العجيب ان الازهر — أعظم المدارس الدينية عند المسلمين — لا يقرأ فيه علم تهذيب الاخلاق الذي لا دين بخلافه!؟ اني كنت اطالع في كتب الاخلاق والتصوف قبل طلب العلم وكنت مولعا بها واذكر انني قلت لبعض شيوخنا اقرأ لنا الجزء الثالث من احياء علوم الدين بدلا من مقامات الحريري القليلة الجدوى فأبى علي ذلك متعللا بما لا حاجة لشرحه !. فالصوفية قد نفروا العلماء من كتبهم بما ذكرناه من شأنهم فشدة زهادتهم في الدنيا كانت سببا لزهادة المسلمين في الدنيا والآخرة مما وكلامهم في الغوامض التي تخالف ظواهر الشرع مع التسليم لهم فتحت باب الافساد العقائد وصار كل زنديق يدخل ما يشاء في كتب الدين منسوبا

لاولياء الصوفية وقد شرحنا بعض هذه المفاسد في مقالات سابقة ولاسيما مقالات الموالد ومقالات سلطة مشيخة الطريق الروحية وبينا سريان النزغات الوثنية في المسلمين بسببهم. ومن يستطيع اليوم أن يتجرأ بالانكار على شيء من شؤونهم وان برأ منه الائمة العارفين الذين ينسبونه لهم ؟؟ أي عاقل يصدق ان السيد عبد القادر الجيلي وهو امام في كل العلوم والمعارف الاسلامية يقول: اعطيت سجلا مد البصر فيه اسماء اصحابي ومريدي الى يوم القيامة وقيل لي قد وهبوا لك !! أيقول هذا عبد القادر والنبي الاعظم صلى الله عليه وسلم يقول لبنته سيدة النساء «يافاطمة يابنت محمد اعملي لاأغني عنك من الله شيأ». هل الذين قال الله تعالى فيهم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» كانوا يلقبون أولئك الاحبار والرهبان بأعظم مما لقب به هذا العبد الخاضع لله تعالى عبد القادر الجيلي الذي ذكروا من ألقابه التي ينادى بها «يامحيي الرمم ياباريء النسم ياضياء السموات والارض » هل قالوا فيهم أعظم من قول بعض جهلاء أهل الطريق «ان احد مريدي الغوث الاعظم مات فسأله الملكان عن ربه ودينه ونبيه فأجابهما بأنه لايعرف الا شيخه عبد القادر فأراد الملكان ان يوقعا به العذاب فجاء الغوث الاعظم فشفع له وأنجاه الله !! » اللهم ان هذا ضلال مؤد للاباحة يتبرأ منه الشيخ عبد القادر قدس الله سره الطاهر وكل من يؤمن بالله واليوم الآخر ومثله في كتب أهل الطريق كثير

سيقول السفهاء من الناس ان مثل هذه الانتقادات لاينبغي ان تنشر في الجرائد ولكن الكتب التي هي فيها قد طبعت مرارا كثيرة وتوجد

في كل بقعة من بقاع الارض يتبوأها المسلمون ولا نجد لها منكرا فهل هذا هو الدين؟ . وسيقول اخرون منهم ان ذكرها كان لغرض من الاغراض . ونحن نقول ان الذي يحاسب على المقاصد والنيات وخطرات القلوب هو الله تعالى وما دام الكلام حقا فلا يعترض عليه « لنا الظاهر والله يتولى السرائر » . وقد تبين بهذا ومما نشرناه قبلا كيف كانت اطاعة هؤلاء الرؤساء مضلة للامة ، ولو أردنا ان نشرح حالة القوم اليوم لجئنا بالعجب العجاب ، وكفاك ان مقام الارشاد ينال باجازة تشترى بريال واحد وما من أحد ينكر ان الفرق بين هذا الخلف وذلك السلف كالفرق بين الثرى والثريا وفقنا الله لمرضاته وألهمنا رشدنا لنتدارك ما مضى

شبهة وجوابها

ورد علينا رقيم من بعض قارئي جريدتنا انتقد فيه صاحبه ما كتبناه في شؤون الخلفاء وسياستهم وتقصيرهم في وظيفتهم الدينية ونصحنا بان لا نعود الى الخوض في مثل هذه المواضيع لان كتابتها في جريدة سيارة يطلع عليها الاجانب وأعداؤنا وأعداء ديننا فيشمتون بنا ويتخذونها حجة علينا

والجواب عن هذه الشبهة من وجهين: أولها ان ما كتبناه في ذلك هو قطرة من بحار التاريخ الزاخرة عند أولئك الاجانب أو الاعداء الذين يعنيهم المنتقد فاذا سكتنا عنه فسكوتنا كتمان له عن أبناء ملتنا الذين يجهله أكثرهم لاهمالهم علم التاريخ وظنهم انه لا فائدة فيه الا التسلية بل سمعت بعض الشيوخ الذين يدعون الفقه يقول ان قراءة التاريخ مكروهة

لان فيه كذبا وتعليله هذا يقتضي ان قراءة أكثر كتب الحديث والتفسير مكروهة لان فيها أحاديث موضوعة وضعيفة ومنكرة وقصصا كاذبة باطلة بل لا يبعد أن يقال على ذلك ان قراءتها محرمة لان الكذب في تفسير كتاب الله تعالى والاختلاق على نبيه من أعظم الكبائر لا يقاس بها الكذب في سيرة ملك أو حاكم أو خليفة أو عالم .

وفي كتب الفقه التي يشتغل بها المتفقه المذكور كثير من الاقوال الباطلة التي لا يصح العمل ولا الافتاء بها والصواب ان شوب الحق بشيء من الباطل لا يقتضي ترك الحق وانما يقتضي النظر الدقيق والتمحيص ليخرج الحق من بين الاباطيل كما يخرج اللبن من فرث ودم خالصا للشاربين. وانما ذكرنا هذا لنبين لحضرة المنتقد قول شيوخنا في التاريخ الذي هو من أشد المنفرات عنه ليعلم مقدار حاجتنا الى استخراج فوائده وعرضها على أمتنا واشعارهم أنهم لا يمكن لهم الوقوف على حقيقة مرض الامم الا منها ومن لم يعرف مرضه لا يسمى لعلاجه واذا سعى فان سعيه يكون عبثا وضلالا، بل خيبة ونكالا، وما مثلنا مع الاجانب الذين يرتأي أصحاب الافكار الضعيفة ان نستر ضعفنا عنهم بأسبابه ونتائجه الا مثل النعامة التي ترى الصياد يريد اقتناصها فتخبئ رأسها وتستره لكيلا تراه توهما ان عماها عنه يوجب عماه عنها وأن ذلك عين النجاة، وحرام على من يجهل تاريخ الغابر وحالة العصر الحاضر ان يقول هذا شيء يضر الامة وهذا شيء ينفعها، وقد منينا والصبر بالله بقوم جهلاء في ثياب علماء يغشون الامة ويغرون بها توهما أن كل من يقرأ تنازع العوامل في النحو يعلم تنازع الامم وكل من يعرف احوال تقديم المسند والمسند اليه وتأخيرهما يعرف أسباب تقدم الامة وتأخرها وكل من

تصد ر للفتوى في مسائل الرضاع والطلاق وصحة الاجارة والسلم له ان يفتي في صحة الشعوب من أمراضها، واطلاقها من وثاقها . بل وقعنا في فوضوية الافكار والعلم فصار كل فرد منا مِعنًّا مِفنًّا [1] ولا برهان يتوكأ عليه، ولا رئيس يرجع اليه، سياسة السواد الاعظم منا اليوم هي كتمان الامراض والسيئات ، وان انتهي ذلك بالممات ، وتكبير ما عساه يوجد من حسنة حتي تكون الحبة قبة والذرة جبلا، بل اختلاق الحسنات، والكذب فيها على الاحياء والاموات، لتسبح الامة في بحر الغرور، الى أن تهلك وتبور، وقد رأينا من سير الامم الحية أن كتابها وخطباءها يملؤن الدنيا صراخا وعويلا اذا صدر من أمتهم سيئة ويهولون أمر تلك السيئة بما يزعجون به الي ازالتها وربما يخفون الحسنات ولاسيما الاستعداد الحربي لما لا يخفى من الاسباب

(الوجه الثاني) ان كل ما نكتبه في الانتقاد على خلفاء المسلمين وأمرائهم وعلمائهم وأهل الطرق وجميع رجال الدين غرضنا الاول به بيان براءة الدين الاسلامي نفسه مما يرميه به أعداء المسلمين من الاوربيين الذين يزعمون أن جميع ما حل بهم من الضعف والضعة والظلم والاستبداد وفساد الاخلاق واختلال الاعمال الذي يكاد يمحو سلطتهم من لوح البسيطة ويجعلهم أذل الشعوب وأفقرها — كل ذلك ما حل بهم الا بسبب دينهم فهو الذي جر اليهم البلاء، وطوحهم في مهاوي الشقاء، والحق ان هذا البلاء والشقاء ما جاءهم الا من الانحراف عن الدين وما كانت أمة لتنحرف عن دينها دفعة واحدة وانما يكون ذلك بالتدريج، ينحرف الرؤساء والامراء

(١) أي عرّيضاً يدخل في كل ما يعني له ويخوض في كل فن يعرض له

فتأول لهم العلماء - علماء السوء - فتبعهم الدهماء وهكذا كان شأن الذين جاؤا من قبلنا واتبعنا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ولا يتم ذلك الا بعدة قرون .

لا ريب ان اظهار براءة الدين برمي أهله رؤسائهم ومرؤسيهم بالتقصير فيه والميل عن هديه، هو أعظم خدمة له ولاهله، والا كان النقد بل النقض موجها للاصل والفرع معا ومايعقلها إلا العالمون . ويدخل في تبرئة الدين مما ذكر بيان انه أساس للسعادة متين لايمكن أن يقوم صرح مجد أهله الا عليه خلافا لمن أعشى أبصارهم شعاع مدنية أوربا فرأوا ان التقليد الاعمى لها هو الذي ينهض بالامة . وهل زادنا هذا التقليد الأعمى الا شقاء وتعاسة ؟ هل نهضت أمم أوربا الا باستقلال الفكر والارادة واتفاق الكلمة والجد في العمل والاعتماد على النفس في الاعمال الكسبية مع الاعتقاد بانه لاقوة ولا سلطان وراء مايحس به ويعلمه الناس الا الله تعالى وحده؟ وهذا عين ماجاء به القرآن وقرره الاسلام . واعترف بعض المنصفين من علماء أوربا وحكمائها بأن نشأة مدنيتها الحديثة انما كان رشاشا من نور الاسلام فاض عليها من الاندلس بأيدي تلامذة ابن رشد الفيلسوف الاسلامي ومن صفحات الكتب التي أخذوها في حروبهم مع المسلمين في الغرب والشرق

والغرض الآخر من انتقاداتنا النصيحة لرؤسائنا اليوم أن يتداركوا مافرط من بعض سلفهم ويصلحوا مافسد من أمور أنفسهم ويعطوا وظائفهم حقها ويسيروا بالامة في المنهاج الذي نهجه الله تعالى لها والله على مانقول وكيل